

ترجمات

ارتباطات إدوارد سعيد بفلسطين(*)

Nubar Hovsepian

ترجمة: صلاح المخلص

California State, University San Marcos

سافرت مع إدوارد سعيد في أكثر من مناسبة، وفي كل مرة كنت ألاحظ أنه يأخذ معه أمتعة كثيرة... سألته عن السر وراء ذلك فأجاب بأنه متعلق بتجربة الترحيل من فلسطين سنة 1948... منذ ذلك الحين ظل يخشى عدم العودة أبداً عقب كل سفر...

لقد خلقت تجربة الترحيل والغربة جرحاً عميقاً لدى عدد كبير من الفلسطينيين، وفي هذا السياق يقول إدوارد سعيد عن رحلته مع عائلته إلى القاهرة سنة 1947: "بالتأكيد لم يخطر ببالي آنذاك أنني لن أعود إلى فلسطين"، إلا أن الحرب وتأسيس الدولة الإسرائيلية سنة 1948 والصراع العربي الإسرائيلي، كل ذلك جعل إدوارد سعيد والكثير من مواطنيه يعانون من محنة النفي والغربة الدائمة بعيداً عن أرض الوطن الأصلي؛ وبهذا الخصوص

*. أود أن أشكر الدكتور محمد علي حيدر على مراجعته للنص المترجم وتدقيقه لغوياً. هذا المقال نشر في نسخته الإنجليزية ضمن كتاب : Edward Said : A Critical Reader (Cambridge, Mass. : Sprinkler . ed. Michael (1992) Blackwell.

يلاحظ سعيد بأنه منذ "العصور القديمة شكل النفي أقسى العقوبات التي يمكن لأي أحد أن يتحملها، فالنفي يعد بمثابة الطرد من الجنة".

في دراسته "تأملات حول النفي"⁽¹⁾ يعتبر سعيد الغربية/النفي تجربة ذات ازدواجية دائمة، حيث يمكن للشخص الانتماء إلى وطن ما، لكنه لا يعد من ذلك الوطن، وبالتالي لا تعرف الحياة في المنفى أي استقرار أو تناسق أو ترتيب، على عكس العيش في الوطن الأم، وفي هذه الحالة تكون تطلعات وأماني ومستقبل الإنسان المنفي/المغترب مرتبطة بهذه الشائبة المحتمية: عندما يحصل المنفي على جنسية غير جنسيته الأصلية وينغمس في مشاغل واهتمامات جديدة ويخلق علاقات أخرى، فإن الارتباط بالوطن الأم وقضاياه لا يتبخر فجأة، بل يظل حاضرا بقوة...

إن انشغال إدوارد سعيد بالقضية الفلسطينية، والدور الذي يلعبه فيها من جهة، واهتمامه بفكرة المنفى وما تفرضه من (علاقات وتقاطعات convergences and connections)⁽²⁾ جديدة من جهة أخرى، يشكلان محورين أساسيين في حياته العملية؛ ومن ثم ساهم في هذا المقال باستعراض نبذة عن علاقات سعيد المختلفة بفلسطين، ليس باعتبارها وطنا أمّا فقط، ولكن باعتبارها أيضا موضوعا لنقاش جاد في الشرق والغرب على حد سواء.

لقد اشتغلت خلال سنتي 1982 - 1983 في كتابة الندوة الدولية حول القضية الفلسطينية التي نظمتها الأمم المتحدة، ورغم إجماع الجمع العام على انعقادها فإن الندوة واجهت صعوبات كثيرة، إذ لم تتطوع أي دولة غربية لاحتضانها بسبب جدالية موضوعها إلى أن وافقت سويسرا أخيرا على احتضانها في قصر الأمم بجنيف! حينها كلفت بإعداد الوثائق المتعلقة بها، وكانت تلك مناسبة لأشتغل عن قرب مع سعيد بصفته مستشارا.

1. انظر Edward W. Said, "Reflections on Exile", *Granata*, 13 (Winter 1984).

2. "Convergences-Inventories of the Past" هو عنوان السلسلة الجديدة التي كان يحررها سعيد لمطبعة جامعة هارفارد.

تقدم سعيد بمداخلة تحت عنوان "ورقة تعريفية بالشعب الفلسطيني"، وقد شارك في كتابتها عدد من الباحثين الفلسطينيين⁽³⁾، إلا أنها لم تُلَقَّ بسبب اعتبارها موضوعا جداليا من طرف المنظمين؛ وفي المقابل سمح المنظمون بعرض صور لـ "جان موهر" (Jean Mohr)، وهي صور تبين ظروف عيش الفلسطينيين، إلا أن ما يثير الاستغراب هو عدم السماح بعرض الشروحات الكتابية المرفقة بالصور؛ وبالتالي يتبين لنا أنه بالرغم من هذا الفضاء الأُمِّي المناسب لم يكن للفلسطينيين حق تمثيلية أنفسهم بطريقة حرة وغير مشروطة!⁽⁴⁾.

يطرح سعيد السؤال التالي: "ما موقفك من القضية الفلسطينية؟ إنه سؤال مستفز بدون شك، لكنه مهم جدا في خضم تعددية النظريات والتفسيرات حول الموضوع"⁽⁵⁾. في هذا السياق يود سعيد أن يُمَوِّع الخطاب حول القضية الفلسطينية خارج الخلفيات الاستعمارية الضيقة، ويؤكد على أهمية بلورة خطاب وطني فلسطيني لا يتمحور فقط حول الرد على الصهيونية، بل ينبثق مباشرة من الحياة المعيشة للفلسطينيين، سواء منهم الذين يعيشون داخل فلسطين، أو أولئك الذين رَحَّلُوا منها. إن وعي الذات الفلسطينية يتجدد من خلال تكريس وإعادة إنتاج خطابها التاريخي العلماني المنبثق من إنسانيتها، والذي من شأنه منافسة المزايم والشروحات الغربية السائدة ومواجهتها. يقول سعيد في هذا السياق:

ليس هنالك، ولن يكون، حياد وموضوعية بشأن فلسطين... إن القضية الفلسطينية منغمسة في أطروحات أيديولوجية بديهية بالنسبة لجميع المهتمين بها، إلى حد أن أي حديث كيفما بدا عرضيا وسطحيا فإنه يعتبر

3. A Profile of the Palestinian People، عمل مشترك لكل من: إدوارد سعيد، إبراهيم أبو لغود، جانيت أبو اللغد، محمد الحلاج، إليا زريق؛ نشر في شيكاغو برعاية "الحملة الفلسطينية لحقوق الإنسان" سنة 1983. وزعت هذه المقالة بطريقة غير رسمية على المشاركين في الندوة، كما جمعت فيما بعد ضمن كتاب المشترك بين إدوارد سعيد و كرسنوف هتشنز:

(London: Verso, 1988), *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*.

4. أدت هذه التجربة إلى التعاون المشترك بين إدوارد سعيد وجان موهر في إنتاج:

(After the Last Sky: Palestinian Lives (New York: Pantheon, 1986

5. انظر: Edward W. Said, "The Burdens of Interpretation and the Question of Palestine", *Journal*:

of Palestine Studies, No. 61 (Fall 1986), p.29

موقفا مأخوذاً أو مصلحة يدافع عنها أو مزاعم وحقوق مكتسبة. ببساطة ليس هناك أي حيز للموضوعية والحياد لقضية موسومة بطابع الحتمية كالقضية الفلسطينية⁽⁶⁾.

وللمهتمين بالقضية الفلسطينية يمكن القول بأن مستقبل فلسطين مرتبط بخطاب يتسم بالتعددية وعدم إقصاء الآخر.

قبل سنة 1967 كان ارتباط سعيد بفلسطين منحصر في علاقته بأسرته وأصدقائه، وبعد حرب 1948 أصبح كل أعضاء عائلته لاجئين، بمن فيهم خالاته وأعمامه وأجداده وأبناء عمه. تلقى سعيد في القاهرة تربية بريطانية استعمارية محضة، وهو ما طبع وعيه السياسي في الخمسينيات بطابع المقاومة للاستعمار، وخصوصاً الاستعمار البريطاني، وبهذا الخصوص يتذكر سعيد أنه كان يكن كرها عميقاً للرئيس الأمريكي ترومان (Truman).

لم يكن لسعيد أي نشاط سياسي فعلي أو انتماءات حزبية في شبابه؛ ففي سنة 1963 استقرت أسرته في بيروت حيث كان أبوه رجل أعمال محترماً ذا علاقات مهمة في كفر دهور الشوير منذ سنة 1942، ولما توفي في أوائل السبعينيات لم تتمكن أسرته من شراء قطعة أرض لتدفنه فيها لكونهم كانوا غرباء عن المنطقة. هذه الواقعة بالذات رسخت في ذاكرة سعيد وظلت تذكره بمرارة لجوء والده وغربته، وعلى حد قول سعيد، فإن أباه كان "فلسطينياً، وبالرغم من أن السكان عاملوه بطريقة حسنة خلال حياته فإنهم لم يطبقوا بقاءه بعد موته"⁽⁷⁾.

لم تراود سعيد فكرة العودة إلى فلسطين، فهو كان يعتبر النزاع عربياً إسرائيلياً، وفكرة تحرير فلسطين لم تكن مطروحة بقوة آنذاك⁽⁸⁾. لكن بعد ترحيل وتشريد الفلسطينيين عام 1948، والعدوان الثلاثي (فرنسا وبريطانيا وإسرائيل) على مصر سنة 1956، نما في الشرق الأوسط وعي جديد يتمحور حول مناهضة الاستعمار والإمبريالية بزعامة الرئيس المصري

.Ibid., p.30 .6

Said, "Edward Said Reflects on the Fall of Beirut", *London Review of Books* (July 4, 1985), .7 p.3

.Interview with Said . April 5, 1991 .8

جمال عبد الناصر وتركيزه على القومية العربية، مما خلف تفاوتًا كبيرًا لدى العرب، وخاصة لدى الفلسطينيين، بمستقبل أحسن يضع حداً لحالة النفي الدائمة، إلا أن هذا التفاؤل سرعان ما تبدد.

في هذه الفترة كان سعيد في جامعتي هارفارد و كولومبيا، ولم يكن عمله مرتبطًا بفلسطين والعرب، أو حتى الشرق الأوسط بصفة عامة، حيث "لم يكن هناك خطاب جمعي حتى ينضم إليه"، فقد ظلت فلسطين بالنسبة إليه مجرد فكرة وذاكرة تاريخية⁽⁹⁾، ذلك أن استمرار الذكرى وإبقاءها حية، على حد تعبيره، يتطلب "استقرارًا جغرافيًا ووحدة ترابية، إلا أن هذا الاستقرار وهذه الوحدة اختفيا من حياتي ومن حياة كل الفلسطينيين"⁽¹⁰⁾.

في سنتي 1969 - 1970 ذهب سعيد إلى عمان وبيروت لزيارة عائلته على ما يبدو وتحديد اللقاء مع الأقرباء ككمال ناصر الذي كان آنذاك منهمكًا في العمل من أجل منظمة التحرير الفلسطينية؛ ورغم أن سعيدًا كان يعرف كمال ناصر منذ الخمسينيات فإنه لم يناقشه في القضية الفلسطينية بطريقة جدية إلا في هذه الزيارة. كان كمال شاعرًا عربيًا مرموقًا، وفي نفس الوقت كان الناطق الرسمي لمنظمة التحرير إلى غاية سنة 1973 عندما اغتيل في بيروت من طرف إسرائيل.

كان سعيد على دراية بمنظمة التحرير، إلا أنه لم يشارك في أعمالها، ولم تكن له أي علاقة بزعمائها وقادتها. كان ما يفعله مواطنوه مهمًا، لكن سعيد فضل أن يأخذ على عاتقه مهمة التعريف بالقضية الفلسطينية من مركز نفيه بنيويورك.

شكلت زيارة سعيد لعمان وبيروت على المستوى الشخصي نهاية ذكريات زواجه الفاشل، حيث تعرف على مريم قورطاس (Mariam Cortes) بنت رجل أعمال لبناني من عائلة مسيحية أصبحت زوجته فيما بعد. في عمان لاحظ سعيد أن الفلسطينيين ينتابهم شعور كبير بالغيرة، ورغم ذلك فإنهم كما يقول: "لن يشعروا بالاستقرار في أي مكان آخر"⁽¹¹⁾. إن

.Ibid .9

.10. انظر: *After the Last Sky*, p.19.

Edward W. Said, "The Palestinian Experience", in *Reflections on The Middle East Crisis*, .11 .ed. Herbert Mason (The Hague: Mouton and Co., 1970), p.130.

الفلسطينيين الذين انضموا وناضلوا ضمن مختلف الفصائل التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية كانوا يشعرون من خلال نضالهم ومقاومتهم أنهم، رمزياً على الأقل، يضعون حداً لتشتت الشعب الفلسطيني، وقد لقب سعيد هذا بـ "الفلسطنة" (Palestinianism)⁽¹²⁾. لقد أعطت معركة الكرامة سنة 1968 الفرصة للفلسطينيين ليواجهوا إسرائيل بطريقة مباشرة، حيث إن الفلسطينيين بدأوا يقاتلون ويدافعون عن أنفسهم عوض توكلهم على المساعدة العسكرية العربية كما حدث في السابق. لقد ساعدت المقاومة المباشرة بشكل كبير على بلورة الذات والشخصية الفلسطينية، وهكذا فإن كان الترحيل والتشريد قد شكلا حياة الإنسان الفلسطيني منذ سنة 1948 كما هو واضح من خلال "تهميشه وعزله وإسكاته، فإن معركة الكرامة قد منحتة بديلاً جديداً يكمن في تحويل التهميش والعزلة والقمع إلى مقاومة فعلية"؛ وباختصار فإن الانتفاضة الفلسطينية جددت مفهوم النزاع وحددته في صراع مباشر بين إسرائيل كقوة محتلة والفلسطينيين كشعب مستعمر ومقاوم.

نشرت نيويورك تايمز سنة 1980 مقالا لريتشارد إدر (Richard Eder) بعنوان "إدوارد سعيد نجم الأدب الإنجليزي ومنظمة التحرير الفلسطينية" (22 فبراير 1980)، وبعد انتهاء دورة المجلس الوطني الفلسطيني سنة 1988، والتي صادق فيها المجلس على "إعلان استقلال الدولة الفلسطينية"، نشرت مجلة نيويورك تايمز مقالا حول إدوارد سعيد بعنوان "رجل ياسر عرفات في نيويورك"⁽¹³⁾.

بعد حرب 1967 كتب سعيد مقالا بعنوان "تشخيص الإنسان العربي" الذي نشر ضمن مجموعة مقالات تتمحور حول الخلاف العربي الإسرائيلي، والتي قام بجمعها إبراهيم أبو اللغد، صديق سعيد. يصف هذا الأخير مقال سعيد على أنه يعالج "بقوة وشاعرية القيم الثقافية التي أحاطت بمختلف وجوه ونتائج الصراع العربي الإسرائيلي ليونيو سنة 1967"، ويستطرد أبو لغود واصفاً سعيداً بـ "الإنسان الأمريكي من أصل فلسطيني"⁽¹⁴⁾؛ فكيف

.12. Ibid., p.132.

.13. "Dinitia Smith, "Arafat's Man in New York—The Divided Life of Columbia Professor"

Edward Said

.14. Ibrahim Abu-Lughod (editor), *The Arab-Israeli Confrontation* (Evanston: Northwestern

(University Press, 1970).

أصبح هذا "الإنسان الأمريكي" في فترة وجيزة أشهر الفلسطينيين في الولايات المتحدة الأمريكية؟

لقد كانت تجربة العربي المقيم في أمريكا خلال حرب 1967 مريرة جدا، إذ كان من الصعب تغافل الصورة المنحطة التي هيمنت على تمثيل الشخص العربي، سواء في الثقافة الشعبية أو في الأوساط الأكاديمية. ردا على هذه التمثيلية كتب سعيد مجموعة من المقالات التي ستشكل الإرهاصات الأولى لكتابه الشهير "الاستشراق" 1978.

"تشخيص الإنسان العربي" يعطينا صورة العربي كإنسان بئس لا يقدر على مواجهة الواقع، ثقافته شبه معدومة، وتاريخه غير معروف لأنه مكتوب بلغة لا تفهم في أمريكا. وهكذا ففي الوعي الأمريكي لا يتمتع الإنسان العربي بأبسط مكوناته الإنسانية، ومن ثم فـ "الظلم والمعاناة التي يقاسي منها العربي حقيقة لا يستوعبها الأمريكيون" (15). باستثناء حالات قلة من الكتاب من أمثال ستون (I.F.Stone)؛ فالغرب لا يفهم أو بالأحرى لا يتقبل المفارقة في أن الفلسطينيين العرب يعذبون بالفعل، وأنهم ضحايا لشعب كان بدوره ضحية لمحاولة إبادة جماعية؛ وهكذا فإن سعيد كان وما يزال يركز على أهمية سرد التاريخ العربي من وجهة نظر العرب أنفسهم على أن لا يكون هذا التاريخ منحصر في رده على إسرائيل والصهيونية (16)، ومن هنا فرد سعيد على أطروحة الاستشراق تركيز في المقام الأول على ضرورة استعادة العربي "لمكانته في التاريخ وفي الواقع" (17) كما يعترف سعيد أيضا بأن الإسرائيليين والعرب مسؤولون معا عن "فوضى عدم الاعتراف بوجود الآخر" (18).

شرع سعيد في كتابة "الاستشراق" سنتي 1975-1976 عندما كان أستاذا زائرا بمركز الدراسات العليا لشعبة علوم السلوك بجامعة ستانفورد، وبعد ذلك نشر "المسألة

15. "The Arab Portrayed", p.9.

16. انظر E. Said, "Permission To Narrate: Reconstituting The Siege of Beirut," *London Review of Books* (February, 1984), pp.16-29.

17. "The Arab Portrayed", p.9.

18. "The Palestinian Experience", pp.141-2. أكد سعيد في مناسبات لاحقة على أن الحل للنزاع يستوجب بلورة خطاب مبني على التعددية. انظر على الخصوص: "Burdens of Interpretation", cited in n.5 above.

الفلسطينية“ سنة 1979، و”تغطية الإسلام“ سنة 1981. تشكل هذه الثلاثية الإطار النظري الذي يعالج سعيد من خلاله المواجهة بين الغرب والشرق، ولا يسعني في هذا المقال أن أناقش بالتفصيل الأفكار الأساسية لكتاب ”الاستشراق“، لكنني سأحاول استنباط الأجزاء الرئيسية التي من شأنها أن توضح لنا الأطروحة الجوهرية لـ ”المسألة الفلسطينية“.

لم يدافع سعيد في ”الاستشراق“ عن الإسلام أو العرب، بل انتقد فكرة الغرب مقابل الشرق، وقد اهتم أساساً بدراسة وتشخيص المصادر التي اعتمد عليها الغرب في معرفته بالمجتمعات غير الغربية، ويخلص سعيد إلى أن دور الاستشراق هو ”... فهم، وفي بعض الحالات السيطرة على، ومحاولة إدماج العالم المخالف للغرب“⁽¹⁹⁾. إن الاستشراق يعد بمثابة مرآة تعكس تسلط وقوة الغرب وشهيته الإمبريالية التي أصبحت ثقافة تسير وتوازي التوسع الاستعماري الأوروبي، ”هكذا فتمثيل المجتمعات والشعوب غير العربية كان يتم من موقع سلطة يمكن الملاحظ الغربي من دراسة وتقديم هذه المجتمعات والشعوب، لا من منظور حياد وموضوعية، أو من وجهة أكاديمية محضه، ولكن على أنها جاهزة لكي تُستعمر ويُسيطر عليها“⁽²⁰⁾.

هكذا يتبين لنا أن مسألة التمثيلية جد مهمة وأساسية، فمواجهة الاستعمار توجب على الشعوب المستعمرة أن تنتج خطاباتها الخاصة بها حتى تكذب المزاعم والمغالطات الاستعمارية الغربية. إن إعادة كتابة التاريخ أضحت مسألة ضرورية لتحقيق الاستقلال ووضع حد لسيطرة الاستعمار وجبروته⁽²¹⁾.

يجد سعيد ارتباطاً واضحاً بين الاستشراق والصهيونية باعتبارهما أطروحتين تمثلان العرب والفلسطينيين من وجهة نظر عدوانية. لقد كتب سعيد معظم فصول كتابه ”المسألة

19. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978), p.12.

20. Said, “Orientalism and Zionism”, in *al-Majalla*, December 2-8, 1987 (Arabic).

21. طور هذه الفكرة جماعة من منظري العالم الثالث، وبالنسبة لأميلكار كابرال Amilcar Cabral ضمن ”The Weapon of Theory” Revolution in Guinea (New York: Monthly Review Press).

Joan Cocks, *The Oppositional Imagination: Feminism, Critique and Political Theory* (London: Routledge, 1989).

الفلسطينية“ سنة 1977 عندما أصبح عضواً بالمجلس الوطني الفلسطيني. في البداية رفضت دار النشر ”بيكين بريس Beacon Press“ وكذلك مطبعة ”بانثيون Pantheon“ نشر الكتاب إلى أن وافقت ”نيويورك تايمز بوكس New York Times Books“ نشره سنة 1979. عوض أن ألخص الكتاب كله هنا، أود فقط أن أركز على نقطتين هامتين: وجهة نظر سعيد للصهيونية في الفصل الثاني المعنون بـ ”الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها“؛

مناقشة سعيد للصهيونية من خلال خطاب تعددي يهدف إلى التعايش، وهذا لم يرق بعض النقاد، ومن ضمنهم الفلسطينيون الراديكاليون الذين اعتبروا أن سعيداً قد قدم تنازلات لفائدة الصهيونية في هذا الكتاب⁽²²⁾.

يصف سعيد الصهيونية على أنها ”فكرة لا تتغير، وتعبّر عن تعطش اليهود إلى تقرير مصيرهم السياسي والديني، وترسيخ الوطن اليهودي فوق الأرض الموعودة“⁽²³⁾، ومن هذا المنطلق نتساءل: ما عواقب الصهيونية وموقفها من غير اليهود؟ يقترح سعيد دراسة الصهيونية من منطلقين:

جينولوجيا حسب مفهوم نيتشه (Nietzsche) لمَوْعَةٍ ومعرفة أصل الأفكار الصهيونية حتى يتسنى لنا تبيان علاقتها التاريخية وارتباطها بالأفكار والمؤسسات الاستعمارية؛ واقعياً وعملياً: ”خلق أجهزة عملية لتجميع (السلطة والأرض والشرعية الأيديولوجية) وترحيل ونفي (الناس وأي أفكار مغايرة وشرعية سابقة)“⁽²⁴⁾.

22. انظر المراجع التالية للتعرف على وجهة نظر الصهيونية: Hillel Halkin, “Whose Palestine? An Open Letter to Edward Said”, in *Commentary* (May 1990), pp. 21-30; and Robert S. Wistrich, “The Unresolved Conflict”, in *Jewish Quarterly* (Spring 1980), pp.56-8 ؛ للاطلاع على النقد الراديكالي الفلسطيني انظر: ”The PFLP The Question of Palestine According to Edward Said“, in *Bulletin*, No. 47 (February 1981), p.56. 23. *The Question of Palestine*, p.56. 24. *Ibid.*, p.57.

في مناقشته لدانييل ديروندا (Daniel Deronda) لجورج إليوت (George Eliot)، وكتابات موزيس هيس (Moses Hess) يستخلص سعيد ثلاث أفكار تقتسمها هذه الكتابات فيما بينها، كما تقتسمها مع الكتابات اللاحقة للمفكرين الصهاينة، وهذه الأفكار هي:

” (أ) عدم اعتبار وجود السكان العرب على الإطلاق؛ (ب) الاتفاق اليهودي الغربي على اعتبار فلسطين أرضاً شاغرة؛ (ج) إعادة تنشيط المشروع اليهودي ليعيد بدوره بناء الدولة اليهودية القديمة ودعمها بوسائل عصرية كإقامة المستوطنات وإنشاء مؤسسة خاصة بجلب الأراضي... الخ“⁽²⁵⁾.

يشير سعيد كذلك إلى أن الصهيونية تطورت ونمت في مناخ التوسع الاستعماري الأوروبي في إفريقيا وآسيا، إذ لم تعد الصهيونية نفسها حركة تحرير وطنية، ولكن أكثر من ذلك ”حركة يهودية هدفها الاستيطان في الشرق“⁽²⁶⁾. يقول سعيد إن تيودور هيرتزل (Theodor Herzl) ”قد استوعب تماما المنحى الإمبريالي اتجاه (السكان الأصليين) و(أراضيهم)“⁽²⁷⁾.

يقول هيرتزل: ”يجب أن يتم سلب ممتلكات الفقراء وأراضيهم وترحيلهم في حرص شديد“⁽²⁸⁾، وقد وجدت هذه الأفكار دعماً كبيراً من طرف ”الرأي الأوروبي السابق الذي لا يعير اهتماماً للسكان الأصليين أو لوجودهم“⁽²⁹⁾؛ وتوضح الوثائق التاريخية أن الشعب الفلسطيني كان مقتنعاً منذ سنة 1908 بأن هدف المشروع الصهيوني هو تحويل الفلسطينيين إلى أقلية في وطنهم التاريخي⁽³⁰⁾.

توازيها مع ما سبق يستنتج سعيد أن ”الصهيونية هدفت إلى خلق وطن يعتبر فيه اليهود سكاناً أصليين، وفي المقابل لم تكن هناك أي رغبة أو إرادة في طرح التعامل

.Ibid., p.68 .25

.Ibid., p.69 .26

.Ibid., p.70 .27

.Quoted in ibid., p. 70-1 .28

.Ibid., p.71 .29

30. انظر انظر الدراسة الهامة لمحمد مصلح Muhammad Y. Muslih, *The Origin of Palestinian Nationalism* New York: Columbia University Press, 1988

مع مسألة السكان الذين تم ترحيلهم و تعويضهم (بسكان أصليين) آخرين قادمين أساساً من أوروبا⁽³¹⁾؛ وهكذا فنجاح المشروع الصهيوني صار مرتبطاً بسلب الأراضي وترحيل الفلسطينيين العرب من أنحاء عديدة من فلسطين، وهذه هي الصورة الوحيدة، يستطرد سعيد، التي رأى الفلسطينيون من خلالها وجروا الصهيونية.

من هنا ينادي سعيد بالمحاح على ضرورة إعادة بناء الخطاب الفلسطيني وإعادة إدماجه في التاريخ والوعي العام، فالمسألة تتعلق أساساً بالتمثيلية كوسيلة لتحقيق الذات وتقرير مصير الشعوب وحقهم في اختيار من يمثلهم، وهذا ينطبق بالطبع على الشعب الفلسطيني أيضاً.

يوضح بنديكت أندرسون (Benedict Anderson) في كتابه "مجتمعات متخيلة" (Imagined Communities) أن تحديد الهوية الوطنية يوظف من أجل إثبات فكرة الوطن والوطنية وترسيخها على أنها منسجمة نظرياً مع الذاكرة الجماعية للشعب. إن الشعب الفلسطيني قد أثبت وطنيته وسيادته من خلال ممثله الوطني منظمة التحرير الفلسطينية. إن نقد الفلسطينيين، ومن ضمنهم سعيد، للخروقات الإسرائيلية كعدم احترام حقوق الفلسطينيين وإغلاق جامعاتهم وحظر كتبهم وفرض رقابة صارمة على وسائل إعلامهم لم تكن تعتبر من طرف بعض الإسرائيليين كرفض لحق الفلسطينيين في التمثيلية، بل بالنسبة إليهم تعتبر هذه كلها ممارسات يجب النظر إليها في سياقها ومحيطها المحليين.

في ندوة للجمعية الأمريكية للمكتبات التي انعقدت في أطلنطا في يونيو 1991 تم تداول دراسة أحال فيها شيمول سيفر (Shmeul Sever) على دراسة قام بها مارون بنفستي (Meron Benvenisti) سنة 1983 يؤكد فيها أن أربعة في المائة فقط من الكتب الموجهة إلى الأراضي المحتلة قد منعت بالفعل، والحقيقة أن هذه النسبة تمثل مائة في المائة من جميع المطبوعات التي تعبر عن الشعور الوطني للشعب الفلسطيني وتطلعاته⁽³²⁾. يتبين لنا من خلال هذا المثال بشكل جلي أن الخطر لا يكمن فقط في خرق بعض حقوق الإنسان، بل

The Question of Palestine, p.88 .31

Shmuel Sever and Ziv Beyth, "Freedom of Speech and Intellectual Freedom in the Israeli

"Occupied Territories

أكثر من ذلك في حظر أي تعبير يشكل الوعي الوطني الفلسطيني ويبرز صورة الفلسطينيين كشعب موحد. إن آمال الشعب الفلسطيني لا تنحصر فقط في إيقاف خروقات الاحتلال العسكرية، بل هي تستهدف وضع حد نهائي للاحتلال نفسه، مما سيؤدي بدوره إلى تمثيلية فلسطينية وإلى وطن فلسطيني مستقل له سيادته.

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن التمثيلية السياسية بالنسبة للفلسطينيين لا تعني أن يسخر تاريخهم وكيانهم كوظيفة للصهيونية، فحياة الفلسطينيين وثقافتهم وقناعاتهم السياسية لها ديناميتها الخاصة، وبالتالي أصالتها ومشروعيتها⁽³³⁾.

يقول سعيد إن الخطاب الفلسطيني المعاصر ينبثق مباشرة من وجودهم في فلسطين ومن ترحيلهم منها أيضاً؛ ولحد الآن فالخطاب الفلسطيني لم يجد له موقعا في الخطاب التاريخي الإسرائيلي الرسمي، وبالتالي فوجود الفلسطينيين يعتبر مجرد تشويش يجب التخلص منه بترحيل الفلسطينيين، بالإضافة إلى ذلك فإن وطنية الفلسطينيين تعتبر بمثابة حالة أو ممارسة شاذة، وليس كتعبير عن إرادة وطنية. من هنا يخلص سعيد إلى أن عدم التوصل إلى حل للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي يرجع بالأساس إلى رفض إسرائيل الاعتراف بالفلسطينيين كواقع.

رغم النقد اللاذع للصهيونية في مؤلف "المسألة الفلسطينية" فإن البعض يعتبره بمثابة مشروع في المصالحة⁽³⁴⁾. عندما انتهى سعيد من كتابته سنة 1979 لم تكن الأغلبية الفلسطينية تعترف بمشروعية تاريخية لحق اليهود في فلسطين. يقول سعيد: "أنا لا أنكر حقهم، لكن هذا الحق صار دائما مرتبطا بترحيل الفلسطينيين وتشريدهم"⁽³⁵⁾؛ وهكذا فسعيد لا ينكر المزاعم الصهيونية مباشرة، ولكنه يود أن يذكر الصهاينة بأنهم ملزمون بحقيقة وجود الفلسطينيين وتاريخهم والدور الذي لعبوه ولا زالوا يلعبونه في فلسطين التاريخية. يعترف سعيد الذي كان آنذاك عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني بأن حل النزاع يجب

33. *The Question of Palestine*, p.112.

34. انظر: Iqbal Ahmad's review, "An Essay in Reconciliation", *The Nation* (March 22, 1980), pp.341-3.

35. Interview, April 5, 1991.

أن يشمل يهود إسرائيل والفلسطينيين معا، ويتم من خلال اجتماع سياسي بين الطرفين، لأن "ماضيها ومستقبلها يربطهما معا"⁽³⁶⁾.

من جهة أخرى يعتبر سعيد هذا اللقاء في مصلحة الشعبين معا، فهو الأمل الوحيد في وضع حد لما يصفه متقززا بتاريخ مليء بالعنف وسياسة رفض الآخر التي تطبع العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية⁽³⁷⁾.

إن عددا من النقاد اليهود اختلفوا مع سعيد حول ما اعتبروه تمثيلية خاطئة للخطاب الصهيوني، فهم يرفضون بقوة ربط الصهيونية بالخطاب الاستعماري الذي كان سائدا في بداية القرن.

يود ويستريش (Wistrich) مثلا لو أن سعيدا اكتفى بإثبات حق الفلسطينيين في وطنهم بدل أن يقوم بالنقد اللاذع للصهيونية؛ وبشاطره الرأي هالكين (Halkin) من موقعه كصهيوني ملتزم، وهو من مواليد نيويورك ويعيش الآن في القدس مسقط رأس سعيد، فالاثان على ما يبدو قد تبادلوا المواقع "حيث إن هالكين واليهود بصفة عامة قد أنهوا نفيم ولم يكن ذلك ممكنا إلا على حساب الشعب العربي الفلسطيني"⁽³⁸⁾.

يرفض هالكين تماما إقامة الدولة الفلسطينية رغم أنه قد يقبل الحديث عن السلام مع الفلسطينيين إن هم أقنعوه بنواياهم السلمية. وهكذا فالكاتبان معا لا يناقشان سعيدا في أطروحته المحورية، وهي حق الفلسطينيين في التمثيلية، وبالرغم من كونهما يقران بأن هناك حقوقا شرعية للطرفين معا في فلسطين، فهما لا يعترفان بأن تأسيس الدولة الإسرائيلية قد أدى بالصهيونية إلى تشريد الفلسطينيين وترحيلهم عن أراضيهم ووطنهم.

يعتبر الراديكاليون الفلسطينيون مقالة سعيد حول المصالحة متطرفة، وبتهمونه بتبديد الحقوق الوطنية للفلسطينيين، وبتقديمه تنازلات كثيرة للصهيونية؛ ويبدو أن النقطة الرئيسية التي فشل فيها سعيد تكمن في تحديده للنزاع على أنه بين شعبين بدلا من تحديده في كونه مقاومة ضد الصهيونية والإمبريالية، وربما نتج هذا الطرح عن اتجاه سعيد البورجوازي

³⁶. The Question of Palestine . p.238

³⁷. انظر مقالات Robert S. Wistrich and Hillel Halkin cited in n.23 above

³⁸. . Halkin , p.23

الإنساني الذي لا يثق بالمقاومة المسلحة ولا يجدها، ويميل بالتالي إلى حل سياسي للنزاع⁽³⁹⁾؛ وكما سنوضح بعد قليل ليست هذه هي المرة الأولى التي ينتقد فيها الطرفان معا (الصهيوني والفلسطيني) سعيدا، فكيف يرى سعيد علاقة الحل السياسي في ظل الحياة السياسية الفلسطينية؟

لقد حدثت ثلاثة تطورات هامة سنة 1974: أولا، تبنى المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة برنامجا من عشر نقاط، وقد اعتبره المحللون المعتدلون بمثابة البوادر الأولى لقبول منظمة التحرير الفلسطينية بدولتين مستقلتين كحل للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني⁽⁴⁰⁾؛ ثانيا، اعترف الزعماء العرب في أكتوبر من نفس السنة بقمة الرباط بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد والشرعي للشعب الفلسطيني، وأكدوا على حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم؛ ثالثا، تم استدعاء ياسر عرفات في الثالث عشر من نونبر لكي يدلي بكلمته أمام الجمع العام للأمم المتحدة، وفي الثاني والعشرين من نونبر حصلت منظمة التحرير على صفة ملاحظ في الأمم المتحدة، وفي نفس اليوم تبنى الجمع العام قرار 3236 الذي يقر بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وفي استقلاله وسيادته؛ وفي هذا السياق، وتوصية من أبو لغود، وافق سعيد على ترجمة الورقة التي كان سيدلي بها عرفات أمام الجمع العام.

كانت هذه أيضا مناسبة للقاء تم لأول مرة بين سعيد وكل من الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، والكاتب شفيق الحوت ممثل منظمة التحرير في لبنان؛ وقد أخبرني الحوت حينها أن اختيار سعيد قد أيقظ فضوله، لأنه لم يسبق له أن سمع بهذا الأستاذ الفلسطيني للأدب الإنجليزي، فكان متحمسا للقاءه ولضمان جودة ترجمة ورقة ياسر عرفات إلى الإنجليزية⁽⁴¹⁾.

39. انظر التحقيق في: The PFLP Bulletin . in n.23 above

40. For a synthetic account, see Muhammad Muslih's *Toward Coexistence: An Analysis of the Resolutions of the Palestine National Council* (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1990).

41. انظر المقابلة مع شفيق الحوت بتاريخ 9 يناير 1989. نيويورك. لاحقا أصبح سعيد صديقا لكل من الحوت ودرويش.

لقد تغيرت الاستراتيجية المتبعة لضمان حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم لما حصلت منظمة التحرير على صفة ملاحظ في الأمم المتحدة حيث عوضت لغة الدبلوماسية والسياسة لغة المقاومة المسلحة؛ ففي السبعينيات اقترح الرئيس السادات على الفلسطينيين تكوين حكومة في المنفى، واقترح كذلك، بموافقة ياسر عرفات، أن يكون سعيد ضمن أعضاء هذه الحكومة؛ وبالفعل تردد اسم سعيد في مناسبات عدة كعضو في فريق المفاوضات الفلسطينية.

بالرغم من أن سعيدا قد طور علاقة جيدة مع عرفات وباقي أعضاء القيادة الفلسطينية فإن أحدا لم يستشره بخصوص عمل هذا الفريق؛ ومن جهته رفض سعيد أن يلعب أي دور سياسي في المنظمة، ومع ذلك فقد وظف مركزه للقاء برسميين أمريكيين وعرب كي يدافع عن حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، وقد انتخب سعيد سنة 1977 عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني كمثقف مستقل، وإذا كان قد أكد مرارا على عدم عضويته في أي حزب سياسي، فلماذا انضم إذن إلى المجلس الوطني الفلسطيني؟ حسب الحوت فإن منظمة التحرير كانت في تلك الفترة في خضم تكوين الإطار المؤسسي للتمثيلية الفلسطينية، وأرادت أن يكون المجلس ممثلا بأعضاء خارج الفصائل المختلفة؛ وحتى يتسم بالمشروعية فالمجلس الوطني الفلسطيني كان بحاجة إلى أعضاء لا ينتمون من مختلف شرائح المجتمع المدني الفلسطيني في المنفى؛ وفي هذا السياق يضيف الحوت ” إن سعيدا انضم إلى المجلس لما أصبح حضوره مطلوبا“⁽⁴²⁾. أما بالنسبة لسعيد فهو يعتبر انضمامه إلى المجلس بمثابة مؤازرة شعبه، وبالتالي تأكيدا على هويته الفلسطينية، فقد مكنته عضويته من لعب دور فعال في تثبيت حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم⁽⁴³⁾.

منذ سنة 1979 لم يحضر سعيد إلا أربع دورات للمجلس الوطني الفلسطيني (1977 في القاهرة، و1984 في عمان، و1987 و1988 في الجزائر)، وباستثناء دورة 1988 كانت مشاركاته في مداورات المجلس الوطني قليلة جدا، حيث كان من عادته الحضور في اليوم

42. مقابلة مع شفيق الحوت بتاريخ 9 يناير 1989.

43. Interview, April 5, 1991.

الأول والثاني، ثم ينسحب بعد ذلك. إن سعيدا لم يشارك في أي تصويت، ولم تكن له القابلية للتدخل في الشؤون الداخلية لمنظمة التحرير وفصائلها المختلفة. قال لي الحوت إن سعيدا لم ينتظر أن يتلقى الأوامر من أي أحد، بل على العكس فهو كان يتدخل بطريقة مستقلة كما هو الشأن بالنسبة إلى عمله اليومي كناقد؛ فبالنسبة إليه كان تقرير المصير الفلسطيني مشروطا بالآنية التاريخية وخصوصياتها آنذاك.

يلاحظ سعيد أن ليس هناك جبهة تحرير قادرة على المقاومة بدون حليف استراتيجي، وهذا ما يفتقده الفلسطينيون، بالإضافة إلى ذلك فهم لا يوجدون في موقع المُستعمر حيث تقاوم أغلبية أقلية حاكمة؛ كما أن طبيعة المستعمر (إسرائيل) ليست كطبيعة الفرنسيين في الجزائر مثلا، أو الأمريكيين في فيتنام، أو البيض في جنوب إفريقيا... فالخصم هنا، يقول الحوت، "مخالف تماما. إننا نتعامل مع الكيان الصهيوني وتجربة الإبادة الجماعية، ومن هنا يبدو لي أن تدمير هذا المجتمع مسألة غير ممكنة"⁽⁴⁴⁾.

في سياق فكرة دولتين مستقلتين كحل للنزاع، كما جاء في الاجتماع الحادي عشر للمجلس الوطني الفلسطيني (1974)، يطرح سعيد مجموعة من الأسئلة الصعبة. في سنة 1979 خالص سعيد إلى أن "المقاومة المسلحة" التي تبناها المجلس الوطني الفلسطيني سنة 1969 لم تعد قادرة على خدمة البرنامج الرئيسي للفلسطينيين، ومن هنا يتساءل سعيد: "هل نحن حركة وطنية للاستقلال أم حركة وطنية للتحرير؟"، وهكذا ينادي سعيد بالحاجة إلى "برنامج واضح اتجاه إقرار السلام وإلى تفسير واضح عن إقامة دولتين مستقلتين كحل للنزاع، وعن الطريقة التي سيتم بها الوصول إلى هذا الحل"⁽⁴⁵⁾. إن الهدف الرئيسي من هذا البرنامج هو الوصول إلى اتفاق مبدئي بين إسرائيل داخل حدود ما قبل 1967 ودولة فلسطينية مستقلة، ومن هنا يجب أن يضمن الصراع مع الصهيونية اعترافا للفلسطينيين بهويتهم الوطنية وحقهم في إقامة دولة مستقلة في فلسطين التاريخية.

.Ibid .44

Interview with Mark Bruzonsky, published in The Middle East (April 1979), and Worldview .45 (May 1979). انتقدت منظمة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بشدة آراء سعيد هذه، فهو في نظرهما كان يبدد الحقوق الفلسطينية، إلا أن المجلس الوطني الفلسطيني تبني آراء سعيد في دورة 1988 بالجزائر.

لم يستطع سعيد حضور دورة المجلس الوطني الفلسطيني لسنة 1983 لأن ابنه آنذاك كان يرقد بالمستشفى لمعاناته من مرض عظام خطير، إثرها كتب سعيد مذكرة إلى خالد الفهوم رئيس المجلس الوطني، وإلى ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وكانت هذه هي الدورة الأولى بعد الهجوم الإسرائيلي على لبنان سنة 1982 والذي أدى إلى تشتت أوسع وترحيل أكثر للفلسطينيين. يؤكد سعيد بافتخار أن ضحايا الاحتلال الإسرائيلي هم الذين زودوا العالم بمبادئ ورؤى للسلام، إلا أن العالم وللأسف "لم ينصت جيدا لما كنا نقوله، لأننا أغرقنا في حملة دعائية عدوانية، وكذلك لأننا لم نكن واضحين ومصرين بما فيه الكفاية"⁽⁴⁶⁾.

يعتبر سعيد أن الوقت قد حان للفلسطينيين كي يعبروا بوضوح عما يريدونه، ولماذا يريدونه، ويضيف قائلاً: "يجب أن نكون واضحين وبطريقة أدق، يجب أن يكون صوتنا ومقترحاتنا وقيمنا ما يعتبره المجتمع الدولي كافلاً لوضع حد للحرب والعنف والدمار" وحتى يضمن الشعب الفلسطيني وجوده عليه أن يحاور ويأخذ بعين الاعتبار المجتمع الدولي والعالمين العربي واليهودي. ومن أجل الدفاع عن حقهم في تقرير مصيرهم ينبغي أن تتوفر لدى الفلسطينيين الرغبة في "التعامل مع آمال أم أخرى وأخذها بعين الاعتبار". علينا أن نناهض صهيونية بيغين وشارون بنظرة فلسطينية للديمقراطية والسلام وعدم العدوانية والعدالة الاجتماعية والسياسية؛ يحث سعيد: "علينا أن لا نخدع أنفسنا ونؤمن بأن التصعيد في القتال وفي الدمار هو ما يساعدنا لأننا في هذه الحالة سنكون الشعب الذي سيؤدي الشمن غالباً".

حث سعيد المجلس الوطني في نفس المذكرة على تبني برنامج واضح للسلام مع مقاومة مدنية واسعة في الأراضي المحتلة، فقد تبين أن المقاومة المسلحة والإرهاب يكبدان الشعب الفلسطيني خسائر فادحة، بالإضافة إلى أنهما يقللان من القيمة المعنوية والأخلاقية للقضية الفلسطينية. والهدف من هذه الحملة السلمية ليس استرجاع الأرض فحسب، لكن التشهير بالاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية أيضاً. وبالموازاة مع هذا، فقد طالب سعيد المجلس الوطني بشن حملة إعلامية واسعة تستهدف بالأساس الشعب والمؤسسات

.46. Quoted from the memo to Fahoum and Arafat. February 16. 1983.

المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية كمرحلة أولى وأساسية اتجاه تغيير سياسة الولايات المتحدة. وأخيرا يؤكد سعيد على حتمية أخذ العالم اليهودي في الحسبان، حيث لا ينبغي للفلسطينيين أن ينطلقوا من موقع الرفض وعدم قبول الآخر، بل عليهم أن يبرهنوا لباقي العالم أنهم يؤيدون فكرة التعايش واحترام الآخر والاعتراف المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

لقد ساعدت بداية الانتفاضة سنة 1987 المجلس الوطني الفلسطيني على تبني إعلان استقلال الدولة الفلسطينية في دورة الجزائر سنة 1988. لقد تسلم سعيد مسودة لهذا الإعلان لما وصل إلى الجزائر وكلف بترجمتها إلى الإنجليزية؛ وبالفعل فقد ساعدت هذه الترجمة على بلورة النص العربي نفسه. بعد ذلك قام سعيد بعدد من المقابلات في مختلف وسائل الإعلام الأمريكية يؤكد فيها على أن تبني المجلس الوطني لهذا الإعلان يعد بمثابة تنازل تاريخي من طرف الفلسطينيين، إلا أن هذا لم يكن كافيا بالنسبة لإدارة ريغن (Reagan) حيث رفضت السلطات الأمريكية أن تسلم تأشيرة الدخول إلى ياسر عرفات حتى يدلي بمدخلته أمام الجمع العام، مما اضطره إلى إلقائها من جنيف. بعد ذلك، وفي ندوة صحفية في قصر الأمم، ألزم عرفات بقراءة ورقة كتبت معظمها وزارة الدولة الأمريكية وأرسلتها إليه عبر الفاكس من واشنطن إلى سفارة السويد، وقد أدى هذا إلى فتح حوار بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير، وسيتبين فيما بعد أن هذا الحوار كان أحاديا.

لما كنت أعين هذه الأحداث من جنيف فإن الحماس الوحيد الذي شاهدته كان في صفوف الصحفيين، أما سعيد، كأغلبية الفلسطينيين الذين أعرفهم، لم يكونوا مسرورين على الإطلاق، حينها صرحني سعيد قائلا: "إنه يحز في نفسي أن ياسر عرفات أرغم على قراءة كلمات أمليت عليه من طرف وزارة الدولة الأمريكية"⁽⁴⁷⁾، وبالرغم من إحباطه النفسي فقد دعم سعيد بقوة شديدة إعلان استقلال الدولة الفلسطينية، ودافع عنه في كتاباته ومن خلال تدخلاته في مختلف وسائل الإعلام.

47. Interview with Said, April 5, 1991. أتوفر على نسخة من الفاكس الذي بعثت به وزارة الدولة الأمريكية إلى سفارة السويد في جنيف.

يعتبر سعيد أن دوره في الولايات المتحدة أكثر من أن يكون مجرد داعية لإعلانات المجلس الوطني الفلسطيني، فالمسألة بالنسبة إليه جد بسيطة، إذ يود أن يكون شاهدا ومعبرا عن حالة شعبه؛ ففي سنة 1988 مثلا عندما شارك في ندوة تيكون (Tikkun) مع مايكل ولزر (Michael Walzer) لم يتحدث عن جزئيات المفاوضات مع إسرائيل، بل ركز على شرح مفهوم الاحتلال بالنسبة للشعب الفلسطيني، ولما كان ولزر يهدف إلى إقصاء البعد التاريخي من المناقشة كان سعيد يلح على تذكير ولزر والمخضون بأن الجميع ملزم بالتاريخ الفلسطيني.

إن سعيدا لا يحتفظ بنقده اللادع للمدافعين عن إسرائيل فقط، بل ينتقد، وربما بقوة أشد، منظمة التحرير الفلسطينية؛ ففي سنة 1989 مثلا قال إن منظمة التحرير لا تفهم المحيط الأمريكي، كما وصف ممثلي المنظمة بأنهم غير مقتدرين ومرتشين، فعوض أن يركز الفلسطينيون على المجتمع المدني الأمريكي ومحاولة معرفته وفهمه بأنفسهم، فإنهم يكلفون آخرين بالقيام بهذه المهمة، وكذلك بتبليغ مواقف الفلسطينيين. إن الأهم بالنسبة لسعيد هو تدخل فلسطيني ذكي ومنسق في المجال العام الأمريكي لكي يضمنوا تأييد هذا الأخير للانتفاضة؛ وفي هذا المجال باءت كل محاولات سعيد ومجهوداته بالفشل، فعوض أن تأخذ منظمة التحرير مقترحاته للإصلاح بعين الاعتبار انتقدته بشدة والتجأت إلى مراوغات كلامية⁽⁴⁸⁾.

أدت انتقادات سعيد إلى مناقشات كثيرة بين الفلسطينيين، لكنها لم تؤد إلى أي تغييرات أو إصلاحات ملموسة. وما تجدر الإشارة إليه أن سعيدا تعرض، أشهرها قبل ذلك، إلى نقد شنيع في مقال بعنوان "أستاذ الإرهاب" نشرته مجلة "تعليق" (Commentary)؛ وفي كلتا الحالتين لم يفهم سعيد كيف يمكن للمثقف أن يشكل قوة معادية.

مثل الكثيرين من المنفيين يعيش سعيد في أوطان مختلفة، ففي أواخر الثمانينات، وحتى حدود غشت من سنة 1990، كان سعيد يساهم بكتابة عمود شهري في "المجلة"، ومن خلال هذه المساهمة الشهرية، وكذا من خلال ترجمة كتبه إلى العربية، دخل سعيد

48. انظر المقابلة التي أجرتها جريدة القبس مع سعيد في أكتوبر 1989، وأجاب عنها ياسر عبد ربه في 14 - 15 أكتوبر من نفس السنة.

في حوار مع مواطنيه الفلسطينيين، فقد حثهم على فهم الثقافة الأمريكية وكيفية التعامل معها، إلا أن هجوم العراق على الكويت وضع حداً لمشاركته في "المجلة". وفي كتابه الأخير عبر عن أسفه للهجوم على الكويت رغم أنه، وكما هو الشأن بالنسبة للكثيرين، رفض أن يختار بين مؤيدي صدام ومؤيدي بوش. إن الصحافة العربية لم تفسح المجال لأي انشقاق أو تعبير عن الرأي الآخر، حيث إنها كانت تشتغل كلها لصالح رئيس تحرير واحد هو الملك فهد عاهل المملكة العربية السعودية⁽⁴⁹⁾. إن هاجس الأمن الوطني للدولة هيمن على الوضعية في العالم العربي وأدى إلى خوف شديد من الحوار الشفاف وإبداء الرأي الآخر. وباعتباره مغترباً يعيش في أمريكا حث سعيد مواطنيه في بلاد المنفى أن تكون لهم نظرة نقدية وملتزمة. يقول: "بما أن لدينا علاقة مع المجتمعين الأمريكي والعربي علينا أن نتسم برؤية نقدية اتجاه الاثنين معاً، فليس من حقنا مساءلة السياسة والمجتمع الأمريكيين فقط، بل علينا أن ننتقد السياسات العربية الحالية، خصوصاً وأنها في معظم الدول العربية سياسات قمعية"⁽⁵⁰⁾.

على الإنسان المغترب، كما سبقت الإشارة إليه في بداية هذه المقالة، أن يربط علاقات مع العالم الذي يعيش فيه، وهو عالم يتميز بالتعددية، وبصفة خاصة على العربي الفلسطيني المنفي أن يتبنى نموذج الانتفاضة التي نسجت مفهوماً جديداً للمجتمع وبلورته من خلال مختلف المجالات الحياتية للفلسطينيين المنفيين. إن ربط هذه العلاقات من شأنه أن يخلق نماذج جديدة للتعاون وقاعدة للتعايش مع الآخر. من هذه الزاوية يمكننا أن نخاطب إسرائيل رغم رفضها للفلسطينيين. إن سعيداً مقتنع بأن الخيار العسكري ليس حلاً بالنسبة للفلسطينيين والإسرائيليين معاً... وهكذا فعلى الفلسطينيين أن يظلوا في الأرض الفلسطينية "وعليهم أن يقنعوا بشتى الوسائل إسرائيل بضرورة الحل السياسي لتخفيف من الحصار المتبادل وعدم الاستقرار الذي يعيش فيه الشعبان معاً، وليس هناك حل حقيقي آخر"⁽⁵¹⁾.

49. هذا التشخيص للروائي اللبناني إلياس خوري.

50. مستنبطة من مداخلة إدوارد سعيد أمام "اللجنة العربية ضد الميز" في دورتها السنوية بتاريخ 4 ماي 1991.

51. Quoted from Said, "Reflections on Twenty Years of Palestinian History", *Journal of Palestine Studies*, XX, Number 4 (Summer 1991), p.22

لا تنحصر مهمة الفلسطيني المنفي في أمريكا في كونه شاهد عيان على محنة الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي، بل عليه أيضاً أن يكون طرفاً في المناهضة من أجل حقوق الإنسان والأقليات و حقوق المرأة، وعليه أن يدافع عن الحق في حرية التعبير وتقرير المصير في العالم العربي وفي أمريكا. هذا موقف لم يكن سعيد ينادي به الآخرين فقط، بل هو الموقف الذي تبناه طوال حياته وعمل به أحياناً على حساب سلامته الشخصية.

المراجع

- Abu-Lughod, Ibrahim, ed. *The Arab-Israeli Confrontation*. Evanston: Northwestern University Press, 1970.
- Cocks, Joan, *The Oppositional Imagination: Feminism, Critique and Political Theory*. London: Routledge, 1989.
- Halkin, Hillel "Whose Palestine? An Open Letter to Edward Said." *Commentary* (May 1990), pp. 21-30.
- Muslih, Muhammad Y. *The Origin of Palestinian Nationalism*. New York: Columbia University Press, 1988.
- Said, Edward W. "Reflections on Exile.", *Granata*, 13 (Winter 1984), 159-172.
- , *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*. London: Verso, 1988.
- After the Last Sky: Palestinian Lives*. New York: Pantheon, 1986.
- , "The Burdens of Interpretation and the Question of Palestine." *Journal of Palestine Studies*, No. 61 (Fall 1986), pp. 29-37.
- "Edward Said Reflects on the Fall of Beirut", *London Review of Books* (July 4, 1985), p. 3.
- , "Permission To Narrate: Reconstituting The Siege of Beirut." *London Review of Books* (February, 1984), pp.16-29.
- , "The Palestinian Experience", in *Reflections on The Middle East Crisis*, ed. Herbert Mason. The Hague: Mouton and Co., 1970. 127-47.
- Sprinker, Michael, ed. *Edward Said: A Critical Reader*. Cambridge, Mass.: Blackwell, 1992.